روز ماري صايغ*

استبعاد النكبة الفلسطينية من دراسات "نوع الصدمة"**

إن الأعمال الأدبية المتعددة بشأن الصدمات النفسية والمعاناة الاجتماعية والذاكرة والضياع، استبعدت النكبة الفلسطينية من سياق البحث، على الرغم من مكانة هذه النكبة في سياسات العالم وتشابهاتها العديدة مع حالات أُخرى من المعاناة الاجتماعية، وعلى الرغم من خاصيتها الاستثنائية من حيث استمرارها وتصاعدها طوال ستين عاماً من طرد الفلسطينيين من وطنهم. وهذه المقالة تبحث في هذا الاستثناء من خلال مراجعة علم الأصول والتوجهات النظرية لدراسات "نوع الصدمة"،[1] والدعم المؤسساتي لها منذ تبلور عملية دراستها مع بداية تسعينيات القرن الماضي وصولاً إلى ما تشهده حالياً من توسع وانتشار. وتُطرح فكرة كيفية تسهيل تناقل المعاناة داخل "الجماعات الأخلاقية" كمحاولة لتفسير فشل أبحاث "نوع الصدمة" في أخذ النكبة بالاعتبار.

مقدمة

تقدّم امرأة فلسطينية نزحت مرتين: الأولى من فلسطين في سنة ١٩٤٨، والثانية من سوريا في سنة ٢٠١٢، الشهادة التالية:

كان عمري ستة أعوام ونصف عام عندما غادرنا (فلسطين). كنّا في وادي سلامة قرب بنت جبيل الواقعة بين جبلين نجلس تحت أشجار الزيتون. كان الناس يحصدون القمح. كانت أمي تغطينا بسيقان القمح. جاءت الطائرات الإسرائيلية وقصفت أشجار الزيتون والصبار. قصفوا كل شيء. قُتل عمّي. أين كان يمكننا أن نذهب؟ نمنا على الطريق (قالت وهي تبكي)... كنت أبكي وأصرخ: "ماما

* محاضِرة في الجامعة الأميركية في بيروت ومتخصِصة بالأنثروبولوجيا والتاريخ المحكي.

** **المصدر**: Rose Mary Sayigh, "On the Exclusion of the Palestinian Nakba from the 'Trauma Genre'", *Journal of Palestine Studies*, vol. XLIII, no. 1 (Autumn 2013), pp. 51-60.
ترجمة: إيمان شمص.

أريد أن أشرب." كان هناك شرطي لبناني. كانت بركة المياه باتساع غرفة الجلوس هذه وكان لها صنبور. قلت له "يا عَم، يا عَم! أعطني بعض الماء." ما زلت أتذكر. كان عمري ستة أعوام ونصف عام. قال لي: "لا يمكنني أن أقدم لك الماء حتى يأتي الرقيب."

بقيت عائلتي هنا (في عين الحلوة). تزوجتُ رجلاً من سورية... وانتقلنا إلى اليرموك! اليرموك! كنا بخير في اليرموك. لكن أين اليرموك الآن؟ الآن ناسه مشردون. البعض منهم هنا والبعض الآخر في مكان آخر. مَن كان معه المال غادر، ومَن كان عنده سيارة غادر. أمّا الفقراء - فإلى أين يمكنهم الذهاب؟

بدأت الحرب... المشاكل... وإطلاق الرصاص. لم نخف. هاجموا المخيم ليومين أو ثلاثة أيام. وقف شباب الحيّ عند كل مدخل؛ لم يسمحوا لهم بأن يدخلوا إلى البيوت. لعلع الرصاص قرب بيتنا. لم نخف. أتت الطائرة وضربت هدفها. لم نخف. ثم بدأت مدافع الهاون بالقصف علينا، من أمامنا ومن ورائنا وحولنا. تهدّمت البيوت. تطايرت الأبواب وتحطمت النوافذ. رحلنا تحت القصف. ذهبنا إلى خان الشيخ، أنا وزوجة ابني وأطفالها وأولادي. لم يكن هناك وقت لأخذ الملابس، فقط الأطفال. في أثناء مغادرتنا سقطت قذيفة هاون بيننا وبين الصيدلية. بقينا شهراً في خان الشيخ ثم جئنا إلى هنا. لم نرد مغادرة سورية هل هناك أحد يرغب في ترك موطنه؟ زوجي ما زال هناك. وابنتي هناك. هي متزوجة ولديها خمسة أطفال. (تبكي). وهناك في دمشق! ابنتي الأُخرى. كل واحد في مكان ما. هنا لا عمل ولا طعام (تبكي). ابني الآخر بقي في بيته تحت القصف. كان هناك اشتباك أمس (في اليرموك).

سأل أحدهم: هل تتوقعين العودة إلى اليرموك؟ فشرعت المتحدثة تبكي:

ماذا يمكنني أن أخبرك؟ قبل مغادرتنا أعطاني زوجي المفتاح وقال: "خذي المفتاح معك ربما لن تجدوني عند عودتكم."

دعونا على الأقل نعود إلى فلسطين![٢]

دراسات نوع الصدمة: نقد

أردت من قصة المسنّة الفلسطينية أن أقدّم تحليلاً لحقل من الدراسات يُدعى دراسات "نوع الصدمة". وهذا النوع الذي بدأ في أوائل التسعينيات بدراسات لكل من كاروث وفيلمن ولاوب ركّزت على المحرقة اليهودية (الهولوكوست)،[٣] جمع كماً هائلاً من دراسات الحالات والتجارب والكتابات عن المعاناة في مختلف أرجاء العالم، الأمر الذي أوجد ادعاء ضمنياً بالعمومية والشمولية. لكن لا بد للمرء من أن يسأل ما إذا كانت "دراسات نوع الصدمة" قد وضعت بذاتها "مرجعية أطر ثقافية" تحدّد ما يُقرّ به كمعاناة. ألم يقم الشهود الذين كوَنت شهاداتهم دراسات نوع الصدمة - علماء

نفس؛ بحّاثة أدب؛ صانعو أفلام، علماء اجتماع ـ بالتركيز بانتقائية على حالات محددة للمعاناة الاجتماعية عن طريق إبراز بعضها واستبعاد أُخرى؟

تشير المقابلة الواردة أعلاه إلى فداحة النكبة واستمرارها كمصدر مستمر لمعاناة الشعب الفلسطيني. النكبة هي الأوضاع التاريخية التي أدّت إلى تشريد الفلسطينيين، والتي تستمر اليوم بعزلهم عن وطنهم وجماعاتهم وتاريخهم. إن غياب الاعتراف بحقوقهم في الانتماء إلى شعب ودولة، والذي نجم عن النكبة، أدى إلى قابلية استثنائية لتعرضهم للعنف مثلما يُظهر وضعهم الحالي اليائس في سورية. غير أنه حتى عندما توسّعت دراسات "نوع الصدمة" عبر السنين لتشمل أعمالاً عن الذاكرة والحزن والصدمة ما بعد الاستعمار، فإن النكبة الفلسطينية ظلّت غائبة بشكل صارخ عن هذا الحقل. إن المعاناة ظاهرة لا يمكن قياسها، ولذلك فإن الحديث عنها يصبح مسألة وجهة نظر وتحيّز من جانب الباحثين والكتّاب والناشرين العاملين ضمن هذا المجال.

في هذه المقالة أعرض أصول وتطور دراسات نوع الصدمة، وكذلك الطريقة التي تم بها الإحاطة بالفلسطينيين في الحالات القليلة التي تناولتهم كموضوع للدراسة. كما أنني عندما آخذ في الاعتبار سطوة الأطراف الراعية للبحث والنشر في مجال "نوع الصدمة"، أطرح أسئلة عن مدى تسرّب العنصرية والتعصب العرقي الغربي إلى توجهات التصنيف.

مع أن دراسات "نوع الصدمة" بدأت بدراسات عن المحرقة لكل من كاروث وفيلمن ولاوب، إلاّ إن المؤلفات الثلاثة التي نشرها آرثر كلاينمان وفيينا داس وآخرون، وعناوينها: "المعاناة الاجتماعية" (*Social Suffering*, 1997)، و"العنف والذاتية" (*Violence and Subjectivity*, 2000)، و"إعادة صنع العالم" (*Remaking a* World, 2001)، هي المُعترف بها إجمالا كمراجع تأسيسية لدراسات نوع الصدمة. ويسجّل ديديه فاسين في كتابه الشهير عن "الحكم الإنساني" (*Humaniterian Governance*) "تأثيرها الملحوظ في هذا المجال العلمي وأبعد منه"، وصولاً إلى صنّاع القرار والسياسيين والجمهور العادي."[٤] وهذه المؤلفات الثلاثة التي سأذكرها إيجازاً باسمَي كلاينمان وداس، تُقدّم الرؤى تجاه معاناة العالم، والتي تبرر استخدام مصطلح "نوع" على الرغم من التباين في تأثيرها الموضوعي. فالمعاناة الاجتماعية كما ترد في مقدمة الكتاب الأول:

> ... تحشد في مجال واحد مجموعة من المشاكل الإنسانية التي تجد منشأها ونتائجها في الأضرار المدمِّرة التي يمكن للقوة الاجتماعية أن تكبّدها لتجربة إنسانية. وتنتج المعاناة الاجتماعية ممّا تفعله السلطة السياسية والاقتصادية والمؤسساتية بالناس، وبشكل تبادلي أيضاً من كيفية تأثير أشكال هذه القوى في الاستجابة للمشاكل الاجتماعية.[٥]

وعلى المستوى النظري يقترح كلايمان وداس لغة جديدة، لغة فيها "ذعر وخيبة أمل وحرمان وجزع" عوضاً عن "المصطلحات المعهودة في السياسة والبرامج."[٦] ويبدو في هذا السياق أن الهدف هو استثارة حساسية الرأي العام للتعويض عن فشل الدول في تفادي العنف أو الحد منه. ويعرض الباحثون في دراسات "نوع الصدمة" أزمات تاريخية ووجودية كي تصبح عنصراً تعريفياً لهذه

الدراسات، وكذلك الدور المركزي للشاهد الذي **يُظهر** شهادات الصدمة **وينقلها** إلى العالم الخارجي. ويبقى الشاهد عنصراً متعدد القوى والأدوار في دراسات "نوع الصدمة"، إذ يُبرز القرائن ويجعلها نصوصاً ويوصلها إلى الجمهور الذي يجب تعبئته ليمنع حدوث مثل تلك الكوارث التي فشلت الآليات المعتادة، كالحكومات والقانون الدولي، في منعها، والتي من الأرجح أن تفشل في منعها مستقبلاً.

يبحث الكتاب الأول من مؤلفات كلايمان وداس الثلاثة، وهو كتاب "المعاناة الاجتماعية"، في "منابع المحنة الاجتماعية وأشكالها الأساسية مع التركيز على العنف السياسي."[٧] أمّا الكتاب الثاني، "العنف والذاتية"، فيدرس "السبل التي يجري من خلالها تحقيق العنف."[٨] وينظر الكتاب الثالث، "إعادة صنع العالم"، إلى كيفية "'تعامل' المجتمعات وتحمّلها لعنف الصدمة وتأثيره وكيفية قراءته والعمل من خلاله وتجاوزه هو وغيره من الأشكال الفظيعة الإضافية للمعاناة الاجتماعية."[٩] وتبقى المحرقة مرجعاً أساسياً لعنف استثنائي في سلسلة كلايمن وداس. وفي حين اقتصر اهتمام فيلمن ولاوب وكاروث على تاريخ أوروبا وأدبها فقط، تنتقل سلسلة كلايمان وداس إلى العالم "غير الغربي" متبنية الإثنوغرافيا (علم الأعراق والثقافات) كمنظار مفضّل لدراسة المعاناة عالمياً. تلك هي تحديداً الخطوة التي جرى اتخاذها من دون أي صوغ نظري للعلاقة بين العالمين الغربي وغير الغربي، أو لكيفية استعمال الإثنوغرافيا لإيجاد هذا الانشطار واستدامته أيديولوجياً وسياسياً، الأمر الذي يعرّض دراسات "نوع الصدمة" لتهمة الافتقار إلى التأمل الذاتي النقدي.

وتتبنى الأمثلة الأخيرة لـ "دراسات الصدمة" نماذج إثنوغرافية وأدبية في آن، وتركز أحياناً على تعابير جمالية للصدمة،[١٠] بينما تجنح في أُخرى نحو دراسات إثنوغرافية للمعاناة في العالمين الغربي وغير الغربي.[١١] لكن حتى في تلك التوسعات، فإن الباحثين في نوع الصدمة لا يقدّمون إطلاقاً أي تفسير نظري لهذا المجال فيما يتعلق بتباين القوى العالمية، أو الأصول الإثنوغرافية كأسلوب غربي لدراسة العالم غير الغربي. وكذلك لا يوضح كلايمان وداس كيف يمكن للمعاناة في العالم غير الغربي أن تختلف عن النماذج الأوروبية في مسبباتها والإدراك المحلي لها وأشكال التعبير عنها وتقنيات معالجتها، بل إنهما ينطلقان من مفهوم للعالمية عام وفطري، مجرد من المسارات التاريخية التي أنتجت وتستمر في إنتاج التفاوت العالمي.

إن إدراج كلايمان وداس لدراسات متعددة عن المحرقة، إلى جانب العديد من حالات النزاعات الأهلية، يوحي بأن الصدمة الناتجة من الحرب هي هاجس أساسي. لكن أي حروب؟ وهنا نجد اقتضاباً لمنظور تاريخي **يستثني** تحديداً "ذاكرات تاريخية للمعاناة ـ مثل العبودية، وتدمير مجتمعات السكان الأصليين، والحروب، والإبادات الجماعية، والاضطهاد الإمبريالي وما بعد الإمبريالي."[١٢] وفي الواقع، يرى كلايمان وداس في مثل تلك الذاكرات **أسباباً** محتملة للعنف، ويشيران إلى أن "لها استخدامات راهنة... من أجل إجازة الحالة القومية أو المقاومة الطبقية أو العرقية."[١٣]

قد يتساءل القارئ لماذا يجب تقديم الصراعات العنصرية أو الإقليمية أو القومية أو الطبقية أو العرقية من أجل العدالة، على أنها **أسباب** للعنف وليست نتاجاً له؟ فعلى الرغم من اهتمام كلايمان وداس بـ "أعمال السلطة وتأثيراتها في الحياة الاجتماعية"،

فإن عملهما لا يهتم إلاّ قليلاً بالاستعمار كسبب للمعاناة العالمية.

وليس مفاجئاً، في ضوء ذلك المنظور التاريخي، أن يكون طلال أسد هو المساهم الوحيد في مجلد "المعاناة الاجتماعية"، الذي يُذكّر القرّاء بالاستعمار، فهو يُبرز كيف أن النقاش بشأن التعذيب وحقوق الإنسان يشتت الانتباه عن مسببات المعاناة كالحروب التي تؤدي إلى أعباء هائلة من الألم والمعاناة على سكان بمجملهم. وهذا الانتقاد ينطبق على كلايمان وداس اللذين أعادا تشكيل حدود جيو ـ سياسية موقتة بين مناطق تولّد فيها العنف تاريخياً عن طريق شبه احتكار لوسائل القوة، ومناطق ينشأ فيها العنف ويتطور من خلال صراع على موارد شحيحة أو أحقاد أججتها السيطرة الاستعمارية. وتُبرز سلسلة كلايمان وداس هذه النقطة بشدة من خلال تجاهلها للاستعمار كسبب للمعاناة **في الوقت الراهن**. ويؤدي النموذج الإثنوغرافي دوراً في تقليص وجهة النظر التاريخية هذه، من خلال صفته المرحلية وتركيزه المحلي.[١٤]

ويكتب كلايمان وداس في مقدمة الكتاب الثاني "العنف والذاتية":

> لقد نشأت جغرافيا سياسية جديدة للعالم في إبّان العقدين الأخيرين، **وسمتْ مناطق بأكملها بأنها "مناطق ميالة إلى العنف"**، الأمر الذي يوحي بأن التقسيمات المكانية الأكثر تقليدية، والمتضمنة المراكز الضخمة والمستعمرات الملحقة والقوى العظمى والدول التي تدور في فلكها، قد أضحت الآن بائدة لغوياً.[١٥]

إن وسم بعض المناطق بأنها "ميالة إلى العنف" يعزل العنف فيها عن المراكز التاريخية للسلطة العسكرية والسياسية والاقتصادية العالمية. وإن تركيز دراسات "نوع الصدمة" على النزاعات الأهلية في دول ما بعد الاستعمار كالهند وأيرلندا وسريلنكا وغواتيمالا وجنوب إفريقيا، يغفل المسارات الاستعمارية التي كانت، ولا تزال في أغلب الأحيان، المساهم الأساسي في مثل هذه النزاعات. ولا بد هنا من التمييز بين استخدامين لمصطلح "ما بعد الاستعمار": الأول يهدف إلى الإيحاء بأن الاستعمار **انتهى**، والثاني يرى أن الاستعمار يكشف عن نفسه اليوم بطرق مختلفة عن الماضي من خلال أشكال غير مباشرة للهيمنة بدلاً من الأشكال المباشرة.[١٦] إن تجاهل الاستعمار المغلف بعبارة "مناطق ميالة إلى العنف" لكلايمان وداس، يتوالد من خلال "نوع الصدمة" على شكل دراسات ضيقة النطاق وغير تاريخية إلى حد كبير.

انتشرت دراسات "نوع الصدمة" بسرعة منذ كلايمان وداس، وتشعبت إلى دراسات عن الذاكرة والأسى والكآبة وسياسة الشهود والاستغلال الجنسي والعنصرية ورهاب المثلية وحالة ما بعد الاستعمار. وهذا التوسع سلط الضوء على عدد أكبر من دراسات الحالة التي نجد بينها حتى الآن إلى جانب المحرقة: تقسيم الهند؛ هيروشيما؛ مجازر الأرمن؛ التمييز العنصري في جنوب إفريقيا (الأبارتهايد)؛ الحروب الأهلية في البلقان وأيرلندا وسريلنكا وغواتيمالا ونيجيريا؛ الإعدام خارج نطاق القانون في جنوب الولايات المتحدة؛ الوفيات الناتجة من الإيدز؛ الاستغلال الجنسي للأطفال. ومع ذلك، فإننا لا نزال نبحث في غمار هذا النتاج الأدبي الواسع عن النكبة الفلسطينية، لكن من دون جدوى.

استئصال لتاريخ

لم تقطع نكبة ١٩٤٨ صلة الفلسطينيين بأرض تُدعى فلسطين فحسب، بل بتاريخهم وبهويتهم أيضاً، فبين ليلة وضحاها تقريباً صاروا يُعرفون دولياً بـ "اللاجئين العرب" أو "الأقلية العربية في إسرائيل".[١٧] ولم يكن هذا الفصل للفلسطينيين عن ماضيهم وعن أرضهم نتيجة حرب، وإنما كان نتاج استثمار سياسي ودبلوماسي من قبل الولايات المتحدة وبريطانيا كمهندسين رئيسيين لترتيبات ما بعد النكبة.[١٨] ويمكن العثور على دلائل على ذلك القطع ليس في استبعاد دراسات "نوع الصدمة" للنكبة فحسب، بل أيضاً في تجريد الفلسطينيين من تاريخهم في الدراسات القليلة لـ"نوع الصدمة" التي تأتي على ذكرهم. ففي مقالة "الأشجار والغابات وتكوين الذاكرة الجمعية الفلسطينية والإسرائيلية" لكارول باردينشتاين في سنة ١٩٩٩، تتم مثلاً، المقارنة بين الترميز الفلسطيني والترميز الإسرائيلي للأشجار والغابات. وتقترب باردينشتاين من الإقرار بالمعاناة الفلسطينية بذكر الشعر الذي يعبّر عن الفاجعة، لكنها لا تحدد إطلاقا النكبة كمنبع للشعر الفلسطيني عن الضياع. وعلى الرغم من أنها تشير إلى علاقات "الشعب ـ الأرض"، فإنها تقدّمها كعلاقة تنطبق بالتساوي على الإسرائيليين كما على الفلسطينيين، لتمحو بذلك الطبيعة الاستعمارية لدولة إسرائيل، حتى إنها تعرض صورة من أرشيف الصندوق القومي اليهودي مع التعليق الأصلي عليها: "استصلاح الأرض الجرداء".[١٩] وللوهلة الأولى تبدو الهضاب المتموجة "جرداء" فعلاً، لكن تفحُّص الصورة عن كثب يظهرها مغطاة حتى الأفق البعيد بشبكة كثيفة من المدرجات التي هي نتاج عمل فلسطيني غير معترف به. إن نشر باردينشتاين للصورة **كما هي** لإظهار غياب الزراعة في فلسطين ما قبل الصهيونية، يبرر بحذق المصادرة الصهيونية للأراضي، ويحجب أسى الفاجعة في الشعر الفلسطيني الذي أوردتْ ذكره.

وإلى جانب تركيزه على الأطفال والعنف، يتضمن كتاب "ثقافات تحت الحصار" (*Cultures Under Siege*) لروبين وسُوارز ـ أوروزكو تقريراً لروبيرتا أبفيل وبينيت سايمون عن اختبارات نفسية لمواقف أطفال إسرائيليين وفلسطينيين تجاه الحرب والعنف.[٢٠] فهذا التقرير لا يضع حياة الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين في سياق إطار احتلال / محتل، ولا ترد فيه أي مقدمة تاريخية تشرح كيف هي مشاركة هاتين المجموعتين المختلفتين لمساحة جيوسياسية، كما أن توقيت إجراء المقابلات في أثناء غزو العراق للكويت في سنة ١٩٩١ يضع الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين على حد سواء تحت تهديد صواريخ سكود العراقية. وبينما يصرّح المؤلفان بالاهتمام بـ "تناقل الصدمة بين الأجيال"، فإن المقابلات كما أُجريت لا علاقة لها بالموضوع. إن غياب استبيانهما في التقرير يؤكد عدم تماسك الدراسة، وهي صفة تظهر بشكل بارز بإدخال قسم لا صلة له ببحث المؤلفَين، ذلك بأنهما يستشهدان بدراسة **غير منشورة** أجراها بحاثة آخرون في غزّة ليوحوا بأن الأطفال الفلسطينيين يخضعون للتربية كمفجّرين انتحاريين.[٢١] ويبدو أن المغزى من إغفال أي ذكر للنكبة هنا هو السعي لإظهار الفلسطينيين ـ وربما حتى غيرهم من العرب ـ كأشخاص عنيفين بالفطرة.

يُظهر بحث لمايكل فيشر بعنوان: "العيش في وضع قد لا يُحتمل في حالة أُخرى:

عالقون في مناطق ما بين حدود فلسطين/إسرائيل" (Living with What Would Otherwise be Unendurable, II: Caught in the Borderlands of Palestine / Israel)، في كتاب "اضطرابات ما بعد الاستعمار" (*Postcolonial Disorders*)، مستوى أكثر حنكة في استثناء النكبة.[٢٢] ففيشر يتناول الفلسطينيين من خلال نصّين، أحدهما مقتطع من حديث لطبيب نفسي فلسطيني في جامعة تل أبيب في سنة ٢٠٠٣ والآخر من بحث لطالب فلسطيني عن الدوريات الإسرائيلية ـ الفلسطينية المشتركة في التسعينيات، وهنا مجدداً، يغيب السياق والبعد التاريخيان لما يشكل بوضوح حالة احتلال عسكري. ويبدو اختيار فيشر للنصوص السيكولوجية مستنداً إلى معارضة "إفادات الشاهد الأول المباشر"، وهذا الحذف، لما يُحتمل أن يكون قصصاً عن الصدمة الفلسطينية، يبرر بادعاء أن "الذاتية... ليست مرتبطة بالضرورة في الوظيفة اللفظية، وخصوصاً عندما يستطيع ضحايا الصدمة التعبير أساساً عن تحسّرهم."[٢٣] ويبدو أيضا أن العنوان المقتبس من دولوز، يشير إلى اختبارات علماء الاجتماع خلال العمل وسط النزاعات الحادة في الشرق الأوسط، عوضاً عن الإشارة إلى شعب يرزح تحت احتلال عسكري لا نهاية له

وتبيَن الأبحاث الثلاثة كلها القيود التي توضع على الكيفية التي يُذكر فيها الفلسطينيين في الكتب التي تنشرها نخبة الجامعات الغربية: أولاً، يُقرَن الفلسطينيون دائماً بالإسرائيليين ولا يتم تقديمهم بشكل مستقل مرتبط بفلسطين؛ ثانياً، ما من إشارة إلى اختلال ميزان القوى والاحتلال العسكري الإسرائيلي؛ ثالثاً والأكثر أهمية، أن هناك استئصالاً من قبل الباحثين للتاريخ عامة، وللنكبة خاصة. وهذا الأمر يطرح سؤالاً عمّا إذا كانت هذه "القواعد" قد جرت مناقشتها بين ناشري كتب ودراسات الصدمة والمساهمين فيها، أم إنها نتيجة رقابة ذاتية ضمنية.

النكبة المستمرة

غالباً ما كان يُجزم بأنه لا يمكن مقارنة النكبة بغيرها من الويلات والكوارث العالمية سواء أكانت حصيلة الضحايا الفلسطينيين في سنة ١٩٤٨ ذات شأن أو لم تكن[٢٤]. فجيلبير أشقر، مثلاً، يقارن الخسائر الفلسطينية بخسائر الجزائريين في أثناء حربهم في سبيل الاستقلال التي كانت أكثر فداحة، ويقول: "لا يستطيع الفلسطينيون... عمداً وبشكل شرعي تطبيق صيغ المبالغة التي تناسب المحرقة اليهودية على حالتهم."[٢٥]

لكن وضع المقارنة بين الكوارث ضمن إطار عدد الضحايا يقدم منظوراً مضللاً لأنه من غير الممكن اختصار المعاناة بمقاييس كمّية، لا بل يجب إدراك المعاناة الناجمة عن النكبة من حيث **استمرار** حالة الحرمان من الحقوق، إلى جانب مختلف ألوان الإساءة والعنف التي يتعرض لها معدومو الحقوق.

وعلى خلاف معظم الفواجع التي تعاملت معها دراسات "نوع الصدمة" فإن النكبة مستمرة دائماً، بل إنها تتجدد. فالنكبة ليست مجرد ذاكرة صدمة، بل إنها تولّد باستمرار كوارث جديدة مجردةً الحاضر من أي شعور بالأمان، وجاعلة المستقبل بأسره قاتماً. والتعبير الفلسطيني المبتكر: "النكبة المستمرة"، يفصح عن هذه الخاصية المرحلية المميزة، وقد استوعب جو ساكو ذلك جيداً في مقدمة تحقيقه عن

مجزرة منسية في خان يونس ورفح في إبّان غزو إسرائيل لغزة بين سنتَي ١٩٥٦ و١٩٥٧:[٢٦]

> لا يتاح للفلسطينيين ترف استيعاب مأساة قبل أن تلحق بهم أُخرى. عندما كنت في غزة، فإن الشبان غالباً ما عبّروا عن ذهولهم تجاه البحث الذي أجريه بشأن أحداث تعود إلى سنة ١٩٥٦.[٢٧] ماذا يمكن أن تفيدهم العودة إلى التاريخ وهم الآن عرضة للهجوم، وتُهدم بيوتهم؟ لكن لا يمكن الفصل بين الماضي والحاضر بهذه السهولة؛ إنهما جزء من سلسلة متصلة لا تعرف الرحمة، إنهما وصمة تاريخية.[٢٨]

وتَظهر "السلسلة المتصلة التي لا تعرف الرحمة"، والتي يتحدث عنها ساكو، في الاستماع إلى شهادات الفلسطينيين المسجلة في أي مكان من أمكنة شتاتهم، سواء في تلك الأجزاء من فلسطين الخاضعة للهيمنة الإسرائيلية، أو في البلاد العربية المضيفة، أو كما ورد أعلاه بين اللاجئين في سورية ومنها. إن لا مبالاة "المجتمع الدولي" بمعاناتهم يجب أن تكون ضمن أي مجهود يُبذل لفهمها، وكما تقول ليلى أبو لغد وأحمد سعدي فإن "العامل الذي يوهن قدرتهم على سرد قصصهم وتعميم ذكرياتهم ونشرها علناً هو أن الدول القوية لا تريد أن تسمع."[٢٩]

مجتمعات أخلاقية

كيف حدث أن استبعد الباحثون في دراسات "نوع الصدمة" الاهتمام بالنكبة، ولم يعدّوها صدمة؟ يقترح الباحث الأدبي ديفيد موريس إطار عمل نظري يمكن من خلاله تفسير الاهتمام ببعض أشكال المعاناة وإهمال غيرها،[٣٠] فيشير إلى أن التقاليد الثقافية تشكّل تصنيفات يتم من خلالها الاعتراف بالمعاناة: "إن الأمر الذي يتوجب على الأدبيات أن تخبرنا إياه عن المعاناة... يعتمد على قرارات أساسية تحدد ما يمكن اعتباره أدبيات، **ومَن يمكن اعتبار معاناته ذات أهمية**".[٣١] ويضيف أن "مَن نتغاضى عن معاناتهم هم أولئك الذين ليسوا جزءاً من 'مجتمعنا الأخلاقي'."[٣٢] والسؤال الحرج: **مَن يمكن اعتبار معاناته ذات أهمية**؟ يربطنا بمفهوم موريس التفسيري الرئيسي لـ "المجتمع الأخلاقي". وبما أن الكتّاب يعملون "ضمن محيط اجتماعي محدد"، فإن التاريخ والثقافة يصبحان بمثابة حدود، فلا تعبر قصص المعاناة بسهولة عبر الحواجز الثقافية؛ كما أن المعاناة ليست "مجموعة معطيات / بيانات أوّلية... يمكننا تحديدها أو قياسها، وإنما هي حالة اجتماعية نعززها أو نكتمها... نحن لا نعتبر أن البطش بالكائنات الأُخرى خارج مجتمعنا الأخلاقي هو معاناة"، فمقتل سائق شاحنة عراقي في غارة لسلاح الجو الاميركي "سيُعرَض على شاشات التلفاز الأميركي كبرهان على تفوق التكنولوجيا في الولايات المتحدة"،[٣٣] كما أن الغارات الراهنة للطائرات الأميركية من دون طيار تثير، على الأرجح، ردة الفعل نفسها لدى معظم الأميركيين. وتضع جوديت بتلر، بطريقة لاذعة، قصر النظر هذا في إطار من العنصرية وتقول: "إن أشكال العنصرية المؤسسة والناشطة على مستوى الإدراك تميل إلى إنتاج صيغ أيقونية لسكان تعرّضوا للظلم وأصبحت مأساتهم ذات تأثير بشكل كبير، ولآخرين لا تشكل خسارتهم أي خسارة فتبقى مأساتهم من دون أي تأثير."[٣٤]

تقدم نظريتا كل من موريس عن

المجتمعات الاخلاقية، وبتلر عن مَن الذي تعرّض للظلم ومَن لم يتعرض له، أداة يمكننا بواسطتها استكشاف حدود انتقال المعاناة وتواصلها بين شعوب ذات أغلبية مسلمة، وأُخرى ذات أغلبية مسيحية. ويعزو الباحث نورمان دانييلز بداية العداء الأوروبي للإسلام إلى النصوص المسيحية الأولى بعد ولادة المسيحية، مستشهداً بالشاعر دانتي الذي وضع النبي محمد في الدائرة الثامنة من جهنم مع الغاوين والمنشقين.[٣٥] وهذا العداء الأوروبي للإسلام عزز الحملات الصليبية والعمل التبشيري والتغلغل الاستعماري. وإذا كان توسع دراسات "نوع الصدمة" نحو العالم غير الغربي يُظهر قليلاً من الميل إلى شمول النكبة، فيمكننا نسبة ذلك جزئياً إلى تخطيط أيديولوجي يماثل الاستشراق. لقد أتاحت القوة الأيديولوجية المنوطة بمؤسسات البحث والنشر الغربية تصنيف الفلسطينيين كالنموذج الأمثل لـ"الإرهابيين"، وكعائق دون اندماج إسرائيل في الشرق الأوسط الذي ترتبط به الحكومات الغربية بقوة لأسباب مادية، وكذلك لتبرئة نفسها من ذنب العداء التاريخي للسامية. وبينما تتبجح المؤسسات الأكاديمية باستقلالها، فإنها ليست محصّنة في وجه تأثيرات السياسة الرسمية، كما أن العداء للفلسطينيين في العديد من الأوساط الأكاديمية الغربية اليوم هو شكل مباح من العنصرية، الأمر الذي يؤكد استمرار سياسات الإقصاء.

خلاصة

هل تستطيع أي نظرية من نظريات الصدمة عدم الإقرار بكون الشهادة التي بدأت بها مقالتي هذه تعبيراً عن المعاناة، وهي شهادة لا تقل أهمية عن غيرها من شهادات دراسات "نوع الصدمة"؟ هل من عاقل يمكن أن يشكك في أن السبب الرئيسي لمعاناة اللاجئين الفلسطينيين في سورية وجرّاء الأزمة فيها اليوم، هو حالة انعدام الدولة الذي أوجدته النكبة؟ وعندما تُعرض المعاناة بتلك التعابير أو ما يشبهها فأي حجج سيخرج بها مؤلفو الكتب أو منظمو المؤتمرات عن الصدمة لاستثنائها؟ في الواقع، لا حجج هناك لأن الاستبعاد يتمّ خارج مجال النقاش العقلاني، وفي نطاق يستفحل فيه التحامل الثقافي والخوف من وصمة العداء للسامية. وليست خسارة نورمان فينكلشتاين لوظيفته في كلية هانتر وحرمانه المنصب في جامعة ديبول، إلاّ الحالة الأكثر شهرة من عدد لا يُحصى من حالات الفصل والتعليق وتأخير تعيين الكفاءات الشابة التي خاطرت بدخول حقل الدراسات الفلسطينية المحظور.

إن دراسات "نوع الصدمة" ليست سوى صورة عن ضعف نظر ثقافي وسياسي أوسع فيما يتعلق بفلسطين وبالفلسطينيين، لكنها ذات أهمية خاصة لأن تركيزها على المعاناة كان يجب أن يضع النكبة تحت الضوء إلى جانب الفواجع التاريخية الأُخرى. وأي تبرير بأن النكبة كانت ثانوية لأنها لم تتسبب حينها بعدد كبير من الضحايا كهيروشيما والهولوكوست ومجزرة الأرمن، هو تبرير باطل: أولاً لتزايد معاناة الفلسطينيين منذ سنة ١٩٤٨، وثانياً لغياب أي أمل منطقي بأن معاناتهم ستنتهي بحل عادل.

إن تغييب النكبة من دراسات "نوع الصدمة" يعكس **ويعزز**، في آن، تهميش مطالب الفلسطينيين بالعدالة وبالإقرار بالنكبة في السياسات العالمية، الأمر الذي يساهم في استمرار الفشل في التوصل إلى حل منصف. هل يمكن أن نشكّ في وجود علاقة بين الدراسات الأكاديمية والسياسات

العالمية الفعلية، وخصوصاً عندما تصدر الدراسات التي تعاملنا معها في هذا البحث عن مراكز السلطة الأيديولوجية؟ لقد أتت رعاية دراسات "نوع الصدمة" من المجالس البحثية العلمية الاجتماعية في الولايات المتحدة والمملكة المتحدة، ومن جامعات رائدة مثل هارفرد ويال وجونز هوبكينز وجامعة كاليفورنيا في بيركلي وكمبردج وأكسفورد. فهل يمكننا أن نتساءل لماذا لم تدعم تلك الجامعات أبحاثاً عن معاناة لاجئي الحرب في أفغانستنان والعراق الذين طلبوا اللجوء إلى بريطانيا ورُفضوا؟ أو معاناة الشيغوس الذين طردهم البريطانيون من جزيرة سان دييغو من أجل تأجير الجزيرة كقاعدة أميركية؟ أو معاناة أمهات أطفال العراق وغزة الذين ولدوا بتشوهات خلقية جرّاء اليورانيوم المنضّب؟ أو معاناة السكان الأصليين من هنود أميركا الذين هم عرضة لجرائم الكراهية؟ مثل هذه الأسئلة مشروع بفعل توسع دراسات "نوع الصدمة" عبر الزمن والفضاء العالمي، وارتقائها بالمعاناة الاجتماعية إلى تقليد أدبي يدّعي، حتى في بعض حالات التخلي، أن في إمكانه تقديم حلول. ■

المصادر

١ نوع الصدمة: مصطلح للتعريف بتصنيف للصدمة النفسية المجتمعية تطال جماعة / مجتمعاً إثنياً أو عرقياً أو وطنياً أو قومياً، وترسخ في الذاكرة الجماعية عبر الأجيال، الأمر الذي يجعل معاناتها الاجتماعية مستمرة، ويبقيها أكثر عرضة لها. [المترجمة]

٢ مقابلة أجرتها الكاتبة مع أم هاشم في ٦ آذار / مارس ٢٠١٣، في مخيم عين الحلوة في الجنوب اللبناني.

٣ يرتكز كتاب شوشونا فيلمان ودوري لاوب: "إفادة: أزمات الشهادة في الأدب والتحليل النفسي والتاريخ"، على تجربتهما في تدريس الهولوكوست في الجامعة، وفي دراسات سريريه مع ناجين من المحرقة. انظر:
Shoshona Felman and Dori Laub, *Testimony: Crises of Witnessing in Literature, Psychoanalysis and History* (New York: Routledge, 1992).
ويجمع كتابا كاثي كاروث: "الصدمة : استطلاعات في الذاكرة" و"تجربة غير معلنة: الصدمة والرواية والتاريخ"، الأدب مع الدراسات السريرية لتحفيز التفكير في الصدمات التاريخية كالهولوكوست. انظر:
Cathy Caruth, *Trauma: Explorations in Memory* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1995); Idem., *Unclaimed Experience: Trauma, Narrative, and History* (Baltimore: Johns Hopkins University Press, 1996).

٤ **Didier Fassin, *Humanitarian Reason: A Moral History of the Present* (Berkeley: University of California Press, 2012), p. 6.**

٥ **Arthur Kleinman, Veena Das, and Margaret Lock, eds., *Social Suffering* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 1997), P. iv.**

٦ Ibid., p. xi.

٧ Veena Das and Arthur Kleinman, "Introduction", in *Remaking a World: Violence, Social Suffering, and Recovery*, edited by Veena Das et al. (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2001), p. 2.

٨ Ibid.

٩ Ibid., p. 3.

١٠ من أجل مثال للمقاربة الجمالية التي بدأتها كاروث انظر:
Mieke Bal, Jonathan Crewe and Leo Spitzer, eds., *Acts of Memory: Cultural Recall in the Present* (Hanover: University Press of New England, 1999).

١١ يمكن إعطاء مثل للمقاربة الطبية الأنثروبولوجية بكتاب:
Mary-Jo Delvecchio Good, Sandra Teresa Hyde, Sarah Pinto and Byron J. Good, eds., *Postcolonial Disorders* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2008).

١٢ Kleinman et al., *Social Suffering*, p. xi.

١٣ Ibid.

١٤ Johannes Fabian, *Time and the Other: How Anthropology Makes its Object* (New York: Columbia University Press, 1983).

١٥ Veena Das, Arthur Kleinman, Mamphela Ramphele and Pamela Reynolds, eds., *Violence and Subjectivity* (Berkeley and Los Angeles: University of California Press, 2000), p. 1.
والتشديد من عندي.

١٦ يعتمد الاستعمار في أشكاله المعاصرة على السيطرة على التقنية والوقت والفضاء، وعلى العلامات والوسائل، أكثر من على الأرض، ويعاد إنتاجه أيديولوجياً وكذلك عسكرياً، كما في حالة قمع إسرائيل الفلسطينيين، وهجمات أميركا على أفغانستان والعراق. انظر:
Derek Gregory, *The Colonial Present* (Oxford: Blackwell, 2004), p. 28.

١٧ Stephanie Latte Abdallah, "La part des absents en creux des réfugiés palestiniens", in *Images aux frontiers, représentations et constructions sociales et politiques: Palestine, Jordanie 1948–2000* (Damas: Institut français du Proche-Orient, 2005).

١٨ يُظهر إيلان بابِهْ في كتابه: "بريطانيا والصراع العربي ـ الإسرائيلي، ١٩٤٨ ـ ١٩٥١"، كيف أن بريطانيا، بدعمها فكرة الأردن الكبير خلال الفترة ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨، قضت على حق الفلسطينيين في أن يكونوا "شعباً"، وأن يكون لهم دولة، وكيف قامت المملكة المتحدة والولايات المتحدة بتحويل مشكلة اللاجئين إلى مشكلة "اقتصادية". انظر:
Ilan Pappe, *Britain and the Arab-Israeli Conflict, 1948 – 1951* (London: Palgrave Macmillan, 1988), pp. 11–16, 124–125.

١٩ Carol B. Bardenstein, "Trees, Forests, and the Shaping of Palestinian and Israeli Collective Memory", in *Acts of Memory: Cultural Recall in the Present*, edited by Bal et al., op.cit., p. 160.

٢٠ Roberta J. Apfel and Bennett Simon, "Mitigating Discontents with Children in War: An Ongoing Psychoanalytic Inquiry", in *Cultures Under Siege: Collective Violence and Trauma*, edited by Antonius Robben and Marcelo Su'arez-Orozco (United Kingdom: Cambridge University Press, 2000).

٢١ صدرت هذه الدراسة مؤخراً باسم "الطريق إلى ساحة الشهداء: رحلة في عالم الانتحاري"، والتي تصفها لوري ألن بأنها "هلوسة موسّعة معادية للفلسطينيين، مغلفة بالألوان كقصة رحلة، ومكتوبة بأسلوب رواية تشويق سيئة." انظر:
Lori Allen, "Suicide as Political Violence", review of "The Road to Martyrs' Square: A Journey into the World of the Suicide Bomber", by Anne-Marie Oliver and Paul F. Steinberg, *Journal of Palestine Studies*, vol. xxxv, no. 2 (Winter 2006), p. 110-113.

٢٢ Mary-Jo Delvecchio Good et al., *Postcolonial Disorders*, op.cit.

٢٣ Michael M. J. Fischer, "To Live with What Would Otherwise be Unendurable, II", in Ibid., pp. 260–261.

٢٤ سينبري باحثون مثل سلمان أبو ستة لمناقشة هذه النقطة على أرضية أن النكبة، أولاً، لم تنحصر في سنة ١٩٤٨، بل امتدت من سنة ١٩٤٧ إلى سنة ١٩٥٦ أيضاً، وثانياً، أن العديد من ضحايا المجازر المرتكبة في سنة ١٩٤٨ لم يُدرجوا بعد ضمن حصيلة الضحايا.

٢٥ Gilbert Achcar, *The Arabs and the Holocaust: the Arab-Israeli War of Narratives* (New York: Metropolitan Books, 2010), pp. 31– 32.

٢٦ كان ذلك في سياق حرب السويس عندما هاجمت بريطانيا وفرنسا وإسرائيل مصر بعدما أمّم عبد الناصر قناة السويس.

٢٧ حدث ذلك في سنة ٢٠٠٢ في ذروة الانتفاضة الثانية.

٢٨ Joe Sacco, *Footnotes in Gaza: A Graphic Novel* (London: Palgrave Macmillan, 2009), p. xi.

٢٩ Lila Abu-Lughod and Ahmad H. Sa'di, "Introduction", in *Nakba: Palestine, 1948, and the Claims of Memory*, edited by Sa'di and Abu-Lughod (New York: Columbia University Press, 2007), p. 11.

٣٠ David Morris, "About Suffering: Voice, Genre, and Moral Community", in *Social Suffering*, edited by Arthur Kleinman et al., op.cit.

٣١ Ibid. p. 25.

والتشديد من عندي.

٣٢ **Ibid., p. 39.**

٣٣ **Ibid., p. 40.**

٣٤ **Judith Butler, *Frames of War: When is Life Grievable?* (London: Verso, 2009), p. 24.**

٣٥ **Norman Daniel, *Islam and the West: The Making of an Image* (Edinburgh: Cambridge University Press, 1960), p. 192.**

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

سجلات السلب

أملاك اللاجئين الفلسطينيين والصراع العربي ـ الإسرائيلي

دراسة في الأرشيفات الرسمية والمراجع الدولية

مايكل ر. فيشباخ

٥٧٨ صفحة ١٨ دولاراً